اقترح الصديق سهيل ادريس ان اكتب عن هذا الموضوع لعدد الاداب الممتاز ، وقد بدا لي الموضوع عند الوهلة الاولى من الالغاز او مما يسمونه في علم الحساب بالتوافيق والتباديل ولكنني لم اكد افكر فيه حتى اخذ يثير في نفسي عدة قضايا فكرية وفنية خطيرة .

فالموضوع كما هو واضح ينقسم الى شطرين اولهما : ثورة الادب ومتى تكون تلك الثورة وكيف تكون في ضوء الاداب العالمية وضوء ادبنا العربي وبخاصة ادبنا الحديث . وثانيهما : ادب الثورة وماهيته ووظيفته واتجاهاته وأوقات ظهوره في ضوء نفس الآداب التي ذكرتها .

ثورة الادب

واول قضية تثيرها ثورة الادب هي : هل ينبغي للادب ان يكون قائدا للحياة والمجتمع وثوراتهما ؟ ام يحسن به ان يقتصر على ان يكون صدى لهما ، وهذه قضية تتصارع حولها مذاهب الفكر والفن . فهناك مذهب يزعم ان الاوضاع المادية للحياة هي التي تتحكم في كل شيء وهي التي تدفع الى الثورات عندما تقتنع الشعوب بفساد تلك الاوضاع وتحس بالحاجة الى تغييرها على النحو الذي يضمن لها قدرا اكبر من السعادة والرخاء ، وذلك بينما ترى مذهبا او مذاهب اخرى تزعم ان الفكر والفن هما اللذان يحدثان الثورات وان ثورة الادب هي التي تمهد لثورات الشعوب وتضرم نارها وأن البؤس نفسه لايحرك الشعوب وانما يحركها الوعي به ، والادب هو الذي ينفث هذا الوعي ثم يستثيره ، وان الاوضاع المادية قد تظل متحجرة في فسادها حتى يثور الادب فيكشف عن ادرانها ويبث روح الثورة ضدها .

وباستطاعتي ان أعترف في صدق ان هذه القضية قد كانت ولا تزال من مشاغل حياتي الفكرية الكبرى التي عرضتها على الكثير مما قرأت في الاداب والفنون والفلسفات ومذاهب السياسة والاجتماع ، واعتقد انني قد وصلت فيها الى حل يرتضيه ضميري العلمي والفني .

فمما لاشك فيه انه لابد ان تمهد تضاريس الحياة لتيارات الفكر الثوري مجراها ، والا ارتطم هذا الفكر بالصخور وتحطم على واقعها البليد . ومما لاشك فيه ايضا ان الاديب الثائر الذي يريد ان يقود الحياة لا ان يقنع بان يكون لها صدى فحسب ، مثله كمثل قائد الجيش الذي لايحسن به ان يسبق جيشه بمسافات طويلة تقطع الصلة بينهما والا كان مصيره الحتمي الى الهلاك ، واذا كان من واجبه كقائد ان يتقدم الصفوف فان من مقتضيات الحكمة والحصافة ان يظل مع ذلك على مقربة من جيشه الذي يستمد منه قوته . واضرب لذلك مثلا بأديب يتحدث عن بؤس لا وجود له اولم تأخذ حلقاته بخناق الشعب بحيث لايكاد الشعب يتبين من حديث الاديب الثائر سبب بلواه ومصدر محنته ويعي كل ذلك حتى يهب للتخلص من ذلك البؤس . ومن المؤكد ان الثورات الكبرى كالثورة الفرنسية والثورة الروسية ثم الثورة العربية الاخيرة كانت تضاريس الحياة تهيء لها المجرى الذي سار فيه المفكرون والادباء والفنانون كرواد وقادة لكي يجذبوا وراءهم جماهير الشعب ، ولولا المظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سبقت تلك الثورات لما انتجت ثورة الادب والفكر شيئا ولا قامت على اثرها ثورات عاتية .

وثورة الادب لاتتخذ طابعا واحدا بل تتنوع مظاهرها ومناهجها بتنوع فنون الادب المختلفة فالاداب الموضوعية كأدب القصة وأدب المسرحية تسلك في ثورتها مسلك الواقعية النقدية لاوضاع الحياة الفاسدة باعتبار ان نقد الواقع الفاسد هو الذي يبث الوعي بهذا الفساد فيضع خميرة الثورة في النفوس . وباستطاعتنا ان نلاحظ ان الواقعية النقدية في الادب قد سبقت دائما الثورات الكبرى ومهدت لها في كافة الاداب التي أشرنا اليها . واما الشعر فهو في الغالب الاعم الذي يعلن الثورة صراحة ويدعو لها المواطنين معتمدا على الوعي الثوري الذي يبثه الادب الموضوعي ، ادب الواقعية النقدية . واذا كنت استطيع ان اضرب مثلا لادب النقد الواقعي بثلاثية اديب فرنسا الثائر « بومارشيه » وهي مسرحيات : « حلاق اشبيليه » و « زواج فيغارو » و « الام الاثمة » التي انتقد فيها الكاتب انتقادا ساخرا مرا سيطرة النبلاء ، واهدارهم لكرامة الشعب الى حد الدخول بزوجاته في اول ليلة من ليالي العرس فانني استطيع ان اكتفي في

التدليل على ثورة الشعر المباشرة ووظيفته في استثارة النفوس استثارة عنيفة بهذه المقطوعة التي قالها احد شعرائنا الشبان قبل ثورتنا الاخيرة وتعتبر من اقوى ماقيل في شعرنا العربي المعاصر :

أيها المغمض المعذب بالليل تطلع لنور فجر جديد
انا أشفى وانت تشقى وهذا ماحفظناه من تراث الجدود
غير اني أليت ابذل روحي كي ينال الحياة بعدي وليدي

*

يارفيقي ونحن جرحان مران يسيلان من دم وصديد
يارفيقي ونحن روحان حران يضجان في حديد القيود
يارفيقي انا وانت وعمي وابن عمي جماعة من عبيد
انا أبكي وانت تبكي ولكن لن يفل الحديد غير الحديد

*

انا صوت مضيع لن يقويه انفجاري به ولا ترديدي
فانطلق وانفجر معي يتعالى ذلك الصوت صارخا بالوعيد

*

يارفيقي في العرى والجوع والكد كفانا عهود عري وجوع
قد شربنا في كأسنا عرق الجبهة والدم ذائبا في الدموع
ذهب العمر كالخريف بوادينا وماتت زهورنا في الصقيع
نحن من يخلق الربيع ويرنو عاريا باكيا لحسن الربيع

*

يارفيقي ونحن ننحت في الصخر قصورا وننزوي في قبور
أفمن تخلق السعادة كفاه يعاني في كهفه المهجور
أفمن يخلق البطولة والابطال يرضى بعالم مغمور
ياجيوش العبيد ارهفك الظلم فقومي الى الكفاح وثوري
أمل ماج في الصدور فاحياها وضجت به حنايا الصدور
أيها المغمض المعذب بالليل تطلع لنور فجر جديد
انا ابكي وانت تبكي ولكن لن يفل الحديد غير الحديد

ومما لاشك فيه ان الشعر هو الفن الادبي الوحيد الذي يستطيع ان ينبض بمثل هذه النغمات الثورية الحارة كاللهب كما ان الشعراء ربما كانوا اكثر حساسية واسرع انفعالا واقوى ارهاصا بتيارات الحياة ومدها الثوري من غيرهم ، ثم ان الشعر قد كان ولا يزال فننا التقليدي الاول الذي تبدأ الثورات الادبية به بل قد نراه يثور على الادب نفسه ويطالبه بالتحول التوري من اتجاه الى اخر فنراه مثلا يدعوه بالتحول عن الذاتية الرومانسية الى الواقعية الاجتماعية فيخاطب الشاعر الواقعي الاجتماعي الثائر زميله الرومانسي الحالم قائلا :

في سماء الخيال ضم جناحيك ـ تقع بيننا ـ فتصبح منا
دع جمال الخيال وادخل كهوفا للملايين وارو للكون عنا
انما الفن دمعة ولهيب ـ ليس هذا الخيال والتيه فنا

ادب الثورة

واما بعد ان تشتعل الثورة وتحقق اهدافها فلا بد ان يغير الادب من اتجاهه ووظيفته ولا بد ايضا من ان يتغير توزيع فنونه فلا تعود في الغالب للشعر القيادة وانما ينهض الادب الموضوعي من قصص ومسرحيات بمهمه تعميق المفاهيم الثورية واهدافهاونتائجها الخيره في نفوس المواطنين حتى تستحيل عواطفهم الثورية الى مبادىء فكرية يؤمنون بها وعلى اساسها تستقر اوضاع المجتمع دون هزات عاطفية جديدة ومن المؤكد ان الثورات لايمكن ان تستقر الى نصر نهائي قبل ان يعمق الادباء والمفكرون مفاهيمها في نفوس الشعب وينزلوها منها منزلة العقيدة والايمان . والقصص والمسرحيات ربما كانت اقدر على ذلك من الشعر لانها تلجأ الى الحكاية والمثل المجسمين لتعميق تلك المفاهيم . ومن المؤكد ان هذه الحقيقة قد كانت من العوامل الاساسية التي اخذت تدفع شعرنا المعاصر بعد ثورتنا الاخيرة نحو القصة والدراما القصيرة تتخذ منهما موضوعا للقصائد حتى يساهم الشعر ايضا في المهمة الكبرى التي يساهم بها الادب المسرحي والادب القصصي . واذا كان وجدان الشاعر الفردي او الجماعي لابد ان يتخلل قصائده القصصية او الدرامية الا ان ذلك لايمكن ان يفقد مثل هذا الشعر طابعه الموضوعي او ان يغير من مهمته في تعميق مفاهيم الثورة عن طريق الحكاية والمثل المجسمين وان كنت الاحظ ان ادبنا الموضوعي لايزال يلتمس موضوعاته من عهد ماقبل الثورة ولم يستطع حتى اليوم ان ينتقل بكل قوته ومداه الى عهد مابعد الثورة ليصبح حقا ادب ثورة لان هذا التحول الكامل يحتاج فيما يبدو الى زمن اطول والى بلورة اعمق لمفاهيم ثورتنا الاخيرة ومبادئها .

واما عندما تتعرض الثورة لهزة من الهزات ينفعل بها الادباء والفنانون فهنا نرى أدب الثورة ينبثق كالوهج المضيء المحرق . ولعلنا نذكر جميعا ذلك الفيض الزاخر من القصص والمسرحيات والقصائد والاناشيد والاغاني التي اندلعت اثناء العدوان الثلاثي على الاقليم المصري مثل نشيد « الله اكبر » واغنية « دع سمائي فسمائي محرقة » ... الخ ولم يقف هذا الفيض عند ادباء الاقليم المصري وحده بل امتد الى ادباء الامة العربية كلها فخلف لنا هذا العدوان ثروة ضخمة من الادب الثوري الخالد .

القاهرة — محمد مندور